الفصل الثاني والعشرون

فجر الحرية في الديار العربية

أثبتنا في الفصل المتقدم أن حاجتنا الكبرى هي العلم علي شرط أن نقرنه بالتربية. لأنه كما أن الداء الذي أصيب الشرق به هو الجهل الذي منى به الشرقيون، فأوقف تيار المدنية، والحضارة في بلادهم. كان من البديهي أن يكون العلم الدواء الشافي من هذه العلة التي استحكمت فينا إلى حد يخشى معه أن تكون سببا في ضياع بلادنا، وأمتنا.

انظر إلى الشرق الأقصى تر فيه دولتين من دول الأمم الصفراء: أحداها تسمي نفسها المملكة السموية، وتدعو ملكها ابن السماء، ولا يحصي عدد سكانها إلا الله. وقد قيل في عام ١٨٧٧م؛ أي منذ اثنين وعشرين عاما. إنهم يزيدون علي أربعمائة وثلاثين مليونا، ونريد بها مملكة الصين. والثانية مملكة الشمس المشرقة، وعدد سكانها في الإحصاء الأخير ٤٢ مليونا: وهي اليابان.

فإذا قيل لك أيها القارئ أن الحرب أورث زناده وتطاير بين الصين واليابان شررها. أفلا تظن، بل ألا تحكم حكما باتا دون أقل تحفظ بأن ابن السماء يظفر بصاحب الشمس المشرقة، وأن الصين تأخذ اليابان في أسرع من لمح البصر، وتنتصر عليها نصرا مبينا.

بل هكذا كان ظن الناس جميعهم عندما ثارت الحرب منذ نحو خمس سنوات بين الصين واليابان؛ لاعتقاد الجميع أن الكثرة تغلب الدربة، وأن الأربعمائة المليون من الصينيين إذا اندفعت علي الأربعين مليونا من اليابانيين

داستها دوسا، وحطمتها بأرجلها تحطيما كما يدوس الفيل برجله ضفدعا ويهشمها دون أن يشعر بذلك.

ولكن النتيجة أخلفت ظن الجميع وظهر بنو اليابان وهم أقل من أربعين مليونا علي بني الصينظو وهم يزيدون علي أربعمائة مليون، وفازوا عليهم فوزا عظيما، وأجلوهم عن أعز مواطنهم، وأخرجوهم من أمنع حصونهم ومعاقلهم، وأسروا جنودهم وقوادهم، وحطموا بواجرهم، واحرقوا أساطيلهم. ولو لم تدخل دول أوروبا فيما بينهم لدخلت اليابان عاصمة الصين عنوة، وبزغت أنوار "الشمس المشرقة" في عرش "المملكة السموية"؛ ليستنير بها "ابن السماء".

والسر في ذلك أن العلم جعل القوة في جانب القلة، كما أن الجهل جعل الضعف في جانب الكثرة. ولا بدع في ذلك فإن الرجل الجاهل كالولد، فإنهم ينهزمون أمامه في أقل من رجع الصدى، ويهربون متشتتين تشتت جيش من الجرذان أمام هر واحد.

وقد قرعت اليابان أبواب العلم ففتحت لها، وهكذا كل من يفتش يجد، ومن يقرع يفتح له، ودخلت رحابه مشمرة عن ساعد الهمة والعزيمة، فنهضت في أقصر مدة نهضة عظيمة تضرب بها الأمثال حتى في أوروبا نفسها، وأعدت بذلك سبيل تقدمها، وهيأت بالعلم أسباب نصرها علي الصين، وتحكيمها السيف في رقاب الصينيين.

واليابان تباري الآن بصناعتها صناعة أوروبا نفسها، فما الذي رقى بها هذا الارتقاء الباهر، وحط الصين ذلك الانحطاط العائب؟. أوليس اليابانيون والصينيون أبناء جلدة واحدة صفراء؟، أوليس كلا الفريقين من طينة سائر الناس؟. فهم قابلون لناموس الارتقاء والانحطاط علي حسب التربية التي يتلقونها، والهمة التي يظهرونها.

بلى، ولكن الياباني خلع ثوب الجهل القديم، واستبدله بلباس العلم القشيب. في حين أن الصيني بقى مرتديا ذلك السربال الرث البالي، راضيا بالتعثر بأذياله، مفضلا العمى الذي هو فيه علي النور الجميل الساطع.

فلا نكونن كالصين التي علي كبرها نالت منها جارتها الصغيرة ذلك المغنم، بل فلنتشبهن باليابان في خلع رداء الجهل القديم لنتشح ببرد العلم الذي هو وحده مورد الحرية، والاستقلال، والثروة، والحضارة، وكل ما يحسب فخرا للشعوب الحية والأمم النامية.

ونحن نردف هذا الكلام بقصيدة وضعناها أيام كان غصن الصباء رطيبا. وجعلنا عنوانها عنوان هذا الفصل، وفيها من الحض علي اقتباس أنوار المعارف والعلوم ما نرجو أن يؤثر في نفوس القراء، وتعود فائدته علي الوطن العزيز، وهي:

يا بني عمنا سلاما فإنا ... قد وردنا مناهل الحرية

وغدونا أهلا لأن نتكنى ... بجميل المآثر العربية

وسلاما يا أيها الفجر إنّا ... قد رأيناك تبعث الذرية

أنت نور فاقبس لنا منك نادرا ... ذات نور يضيء ليل البرية

أنت تحيي العظام وهي رميم ... كيف لا تبعث النفوس الأبية؟

قد جهلناك ثم عدنا فعد ... فالعود حمد، وللعلي أريحيه

مهدك الشرق أيها الفجر فأحفظ ... عهد مهد، وأرع العهود الوفية

عد إلينا كما نعود، وندعو ... لا تخيب آمالنا الشرقية

نحن قوم لم نرع قدر المعالي ... فارتدينا الهوان، والسخرية

ودعـــونا عليـــك جهـــلا ولكـــن ... قـــد نـــدمنا الندامـــة الكســـعية

فـــأجرنا ممـــا جنينـــاه واذكـــر ... جـيرة قـد مضـت، وكانـت هنيـة

يا لقـــومي لقـــد تألـــق في الشـــرق ... هـــــلال بأحـــــرف ذهبيـــــة

فـــأميطوا عنهـــا اللثـــام ونادوا ... أيهـــا النـــاس غـــيرة وطنيـــة

واســـتنيروا بنـــور فجـــر جديـــد ... لا تظنـــوا أنـــواره ســـرية

فهـــو باد دون الحجـــاب، فمـــدوا ... الطـــرف تلقـــوا أشـــعة شـــفقية

هـــي بشـــرى لكـــم بأنـــوار مجـــد ... دونهـــن المطـــالع الشمســـية

يا لقـــومي فينـــا المنـــادي ينـــادي ... فـــأفيقوا لنجـــني الأمنيـــة

رن في مصـــر صـــوته حـــين نادي ... فأفاقـــت علـــي الصـــدى ســـورية

فـــإلى مـــا نلهـــو، ونغفـــل عنـــه ... ولنـــا منـــه كـــل يـــوم عطيـــة

أولســـنا العـــرب الكـــرام الأولي ... قـــادوا جميـــع الشـــعوب للمدنيـــة؟

وتســـامى بفضـــلهم كـــل فضـــل ... وتعـــالى بعـــزهم والمزيـــة

مـــن أقـــاموا للمجـــد صـــرحا مشـــيدا ... فـــوق كســـرى، والدولـــة القيصـــرية

نهضـــوا فـــامتطوا متـــون المعـــالي ... حـــين ملـــوا امتطـــاء مـــتن المطيـــة

فهـم القـوم مـن يحـدث ومـن يسـكت ... فـــآثارهم لـــدينا جليـــة

تلـــك آثارهـــم تـــدل علـــيهم ... مـــن حســـامية، ومـــن قلميـــة

فـــاتبعوهم في إثـــر كـــل يـــراع ... وأعيـــدوا المعـــالم العلميـــة

فـــبحظ الـــيراع أدرك مـــا ... تعجـــز عنـــه البـــواتر الخطيـــة

وخـــذوا كتـــبهم كتائـــب نجـــح فتحهـــا في الســـطور لا المشـــرفية

فيهـــا تبلغـــون مـــا تتمنـــون مـــن الارتقـــاء، والحريـــة

واجعلـــوا بـــدئكم مطـــالع ســـعي تقتفيهـــا الخـــواتم العنبريـــة